

العثمانيون من البداوة إلى الاستيطان: دراسة في نشوء الإمارة العثمانية

The Ottomans from Nomadism to Settlement: A Study on the Rise of the Ottoman Emirate

أ.م. د. أنيس عبد الخالق محمود

Asst. Prof. Dr. Anis A. Mahmoud

كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية

anisalkaysi@uomustansiriyah.edu.iq

الملخص

يعالج البحث موضوع الأصول البدوية لآل عثمان ودور المنظومة القبلية فيها، ولاسيما خلال عهد عثمان غازي وأورخان غازي اللذين تتضح في عهدهما النظم القبلية التي حملها معهم الأتراك من آسيا الوسطى إلى غرب الأناضول دون تغيير كبير. وقسم البحث على أربعة محاور. كان أولها عن فرضية الغزو/ الجهاد وحقيقة إسلام العثمانيين الأوائل، وتناول الثاني أثر الضغط المغولي في اندفاع القبائل البدوية التركية من شرق الأناضول إلى غربه، في حين درس الثالث جذور العثمانيين الأوائل القبلية. أمّا الرابع فقد سلط الضوء على التحول من نظام المجتمع البدوي إلى نظام المجتمع المستقر. ويوضح من خلال البحث أن النزعة القبلية . البدوية كانت أهم سمات النشاط العثماني المبكر، ذلك أنها لا تعتمد على وحدة الأصل، بل على المصالح السياسية المشتركة. وبالتالي، فإن الغزوات العثمانية المبكرة ضد البيزنطيين لم تكن بدافع ديني، بل بسبب حاجة القبيلة البدوية إلى الذوبان في

المجتمع المستقر والاندماج فيه. وقد تمكن العثمانيون الأوائل من محاربة جيرانهم المسلمين والاندماج مع البيزنطيين لأن تنظيمهم كان قبليًا في الأساس، ما سمح لهم باستيعاب الأفراد والجماعات المتنوعة.

الكلمات المفتاحية: التاريخ العثماني، نظريات نشوء الإمارة العثمانية، القرن الرابع عشر، پول فيتك، مؤرخون عثمانيون.

Abstract

The paper deals with the nomadic origins of the Ottomans and the role of the tribal system in this, especially during the reign of Osman Ghazi and Orhan Ghazi, during whose the tribal systems that the Turks brought with them from Central Asia to western Anatolia without much change are evident. The paper is divided into four sections. The first is about the hypothesis of Gaza (Jihad) and the reality of the early Ottomans' conversion to Islam. The second deals with the effect of Mongol pressure on the Turkish nomadic tribes' rush from eastern to western Anatolia; the third studies the tribal roots of the early Ottomans. The fourth sheds light on transforming from a nomadic to a settled society. It concludes that the tribal–nomadic tendency was the most important feature of early Ottoman activity, as it does not depend on unity of origin, but on common political interests. Therefore, the early Ottoman conquests against the Byzantines were not motivated by religion, but rather by the need of the nomadic tribe to dissolve and integrate into the settled society. The early Ottomans were able to fight their Muslim neighbors and combine with the Byzantines because their organization was essentially tribal, allowing them to accommodate diverse individuals and groups.

Keywords: Ottoman history, theories of the emergence of the Ottoman emirate, fourteenth century, Paul Wittek, Ottoman chronicles

مقدمة

ثمّة شبه إجماع بين المؤرخين على أن أصل العثمانيين قبائل بدوية اندفعت من أواسط آسيا نحو الأناضول تحت ضغط الهجمات المغولية التي بدأت منذ القرن الحادي عشر، واستقرّ أسلافهم من قبيلة قايي في سوغوت (شمال غرب الأناضول) ودخلوا في خدمة سلاجقة الروم (١٠٧٧-١٣٠٨م)، حتّى استقرّ الأمر لهم بسقوط دولة الأخيرين في عهد آخر سلاطينهم غياث الدين مسعود (في ولايته الثانية، ١٣٠٢-١٣٠٦م)^(١) وبروز عدد من الإمارات التركمانية بالتزامن مع ذلك. وبسبب غياب المصادر العثمانية الأولية، راح المؤرخون يجتهدون في وضع نظريات تأسيس تلك الإمارة التي صار تحولها من قبيلة إلى إمبراطورية مترامية الأطراف موضوعاً خصباً لدراسات وأبحاث تناولت كل شاردة وواردة فيه. ولكن بينما كان هناك انهماكٌ حثيثٌ للخروج بنتيجة حاسمة وقاطعة في هذا الموضوع، غاب عن بال أولئك المؤرخين الأساس الذي انطلقوا منه وانتقوا عليه، وهو الأصول البدوية والقبلية لتلك الإمارة، والتي يحاول هذا البحث أن يثبت أنها قد تكون تفسيراً منطقيّاً وواقعياً لنشأتها وتوسعها في مرحلتها المبكرة، وامتداداً معقولاً لسلسلة الأحداث التي رافقت عملية التحول الطويلة مذ كانت كياناً جنينياً في طور القبيلة حتّى تحولها إلى إمارة لها هويةً سياسية واضحةً صارت نواةً لدولة فامبراطورية. وعليه، فالهدف من البحث العودة إلى الأصول لا الفروع، وتأسيس نشوء تلك الإمارة على الأسس الواقعية التي انطلقت منها، وتجاوز التفسيرات والآراء التي ظهرت في الثلث الأول من القرن الماضي صعوداً، وإن كان كلٌّ منها يحمل درجةً معينةً من الصحة.

تتعلق فرضية البحث من حيث انتهى أشهر منظري تأسيس إمارة آل عثمان، المؤرخ النمساوي پول فيتك Paul Wittek (١٨٩٠-١٩٧٨م)، الذي فسّر سر نجاح العثمانيين الأوائل في تأسيس دولتهم وتحولها من قبيلة إلى إمبراطورية بمبدأ "الجهاد" (الذي يسميه "الغزو")، مشدداً على أنه يمثل حجر الزاوية والمدخل الأساس لدراسة هذا الموضوع. ولكن في مقابل هذا التفسير، ثمّة وقائع وحقائق لا يمكن تجاهلها تؤكد أن نجاح العثمانيين في تأسيس إمارتهم يعزى إلى قوة الأواصر القبلية والبدوية أكثر من أي عامل آخر. ولأنهم ظهروا على الحدود

(١) كان قد حكم قبل ذلك خلال (١٢٨٤-١٢٩٧م).

البيزنطية . السلجوقية على طبيعتهم القبلية التي دخلوا بها البلاد أول مرة، فالمنطق يقضي أن تظل تلك الطبيعة ملازمة لهم خلال مرحلة التأسيس على الأقل. وانطلاقاً من ذلك، سناقش هذا البحث مسألتين مركزيتين: الأولى هي إن سلوك العثمانيين الفعلي كان أبعد من أن يكون عن مفهوم الجهاد الإسلامي. والثاني هي إن تفسير قبئك لأدلته كان نابغاً من قراءة خاطئة لمصادره ناجمة عن إسقاط مفاهيم إسلامية لم تكن قد تجذرت في الواقع العثماني حينذاك. ولذلك سيكون هدفنا إعادة توجيه البوصلة إلى الأفعال لا الأقوال، أي مقارنة الروايات والنصوص بما كان يجري على أرض الواقع فعلاً، لا بما هو مدون في تلك النصوص. ولأن البحث سناقش حياة البداوة في الأناضول منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى مطلع القرن الرابع عشر، سيكون أحد أدوات إثبات فرضيته الإجابة عن التساؤل التالي: كيف تحول العثمانيون الأوائل من بدو رعويين إلى حكام مستقرين، وكيف استوعبت تقاليدهم القبلية الجماعات الدينية والعرقية المختلفة في إمارتهم الناشئة، وكيف صار هذا التنوع البيئي في تلك القبيلة المتنامية أحد أهم وأقوى ركائز مشروعهم السياسي؟ ولذلك، سيركز البحث على دراسة الخلفية البدوية والقبلية، لا الدينية، بحكم كون القبيلة كياناً جامعاً يضم جماعات مختلفة تربطها مصالح مشتركة، كما حدث في موطن العثمانيين الأول في أواخر القرن الثالث عشر، حينما ضمت قبيلة قايي جماعات عرقية ودينية متنوعة، كالبيزنطيين (اليونانيين) المسيحيين والبدو الأتراك، المسلمين وغير المسلمين. إن التنوع الديني لهذه الجماعات هو الذي حدا بنا إلى استبعاد مفهوم الجهاد في تأسيس الإمارة العثمانية، لأنه لو كان الدافع الرئيس لقيامها فعلاً كما يرى قبئك، فالمنطق يقضي باستبعاد البيزنطيين منه لكونهم غير مسلمين (كفأراً من وجهة نظر المصادر العثمانية). ولذلك، لا بد أن نبدأ بتحديد مكانة الجهاد في زمن عثمان غازي (١٣٠٠-١٣٢٤م)، وفيما إذا كان ينطبق على أفعاله أو لا. ولإثبات ذلك، سنناقش باختصار صحة نظرية قبئك.

أولاً: عودة إلى الوراء: فرضية الغزو (الجهاد) وحقيقة إسلام العثمانيين الأوائل

قبل الخوض في سؤق أدلة فرضيتنا، لا بد من التذكير أولاً بفرضية قبئك المبنية بالكامل على مفهوم الغزو (الجهاد) وشكك فيها بأنساب العثمانيين القبلية، وبين، بعد تحليل معمق، أن أنساب عشيرة قايي (المتفرعة من قبائل الأوغوز) لا تناقض نفسها فحسب، بل تعود جميعها مصدر واحد هو كتاب أوغوزنامه (أو تواريخ آل سجلوق) ليازجي زاده أوغلو علي (عام ١٤٣٦ أو ١٤٣٧م) (محمود، شباط (فبراير) ٢٠٢٢م، الصفحات ٤٦، ٥١-٥٣)، ليستنتج أن تلك الروابط القبلية لم تكن موجودة في القرن الثالث عشر. ورغم جميع محاولات إثبات

ذلك، عجزت المصادر عن تقديم أي دليل ملموس . بحسب رأيه . على وجود سلسلة نسب تربط أجداد عثمان غازي بتلك العشيرة، وهو ما يدل على ضعف دور القبيلة في التاريخ العثماني المبكر؛ بمعنى أن عدم وجود سلسلة نسب مؤكدة يعني أن الرابطة القبلية لم تكن عاملاً أساسياً في ذلك التاريخ (فيتك، ٢٠٢٤م، الصفحات ٤٦، ٥١-٥٣). وفي المقابل، لدى تفسيره بلوغ العثمانيين السلطة ونجاحهم في التوسع، لجأ إلى أقدم نصين عثمانيين مبكرين، هما ملحمة أحمدي (ت. ١٤١٣) الشعرية المعنونة **دستان: تواريخ ملوك آل عثمان**، والكتابة المنقوشة على جامع "شهادت" في بورصة (بروسه) لعام ١٣٣٧م، واتخذ مفردة "الغازي" الواردة فيهما دليلاً على أن الإمارة العثمانية قامت وتوسعت لدوافع دينية أساسها شدة الحماسة للإسلام (فيتك، ٢٠٢٤م، صفحة ٣٧). فهل تؤيد الوقائع هذا الطرح؟

بدايةً، وبدلاً من الانسياق وراء فرضية فيتك^(٢)، ولغرض الإجابة عن هذا التساؤل، لا بدّ أن نتجاوز ما ورد في النصوص العثمانية المبكرة وندرس طبيعة سلوك العثمانيين الأوائل، لنقرر فيما إذا كان مفهوم الجهاد ينطبق عليه أو لا. وسيساعدنا ذلك في تقرير ما إذا كانت أدلة فيتك كافيةً لتفسير قيام الإمارة العثمانية وتوسعها، أو مجرد هالة دينية وظّفها مؤرّخو البلاط اللاحقون لشرعنة غزوات سلاطينهم الأوائل.

عند دراسة الحملات العثمانية الأولى دراسةً فاحصةً، ولغرض الاعتناق من الإطار النظري الذي وضعه فيتك، سنلاحظ إشارات عدّة تفرغ فرضيته من محتواها. فأولاً وقبل كل شيء، نلاحظ أن معظم تلك الحملات كانت ضد الإمارات التركمانية المجاورة، وهي إمارات إسلامية لا مسيحية (كافرة بحسب المصادر العثمانية)، ولم تكن في حقيقتها جهاداً لنشر الإسلام؛ إذ كانت أقدمها على قلعة قره جه حصار (جنوب سهل سوغوت، موطن العثمانيين الأول) التي انتزعها العثمانيون من أمراء جيرميان المسلمين عام ١٢٩١م. ومع أن المصادر العثمانية تصرّ على مسيحيتها لتسويغ غزوها، إلا أن أي

(٢) لا بدّ من القول هنا إن فرضية "الغزو" لم تكن من بنات أفكار فيتك، بل سبقه فيها محمّد فؤاد كوبريلي، لكنه لم يجعلها عماد فرضيته كما فعل فيتك. انظر: (كوبريلي، ١٩٦٧م، صفحة ١٢٦).

تكافرة^(٣) مسيحيين لم يكونوا بجوارهم حينذاك (بيلديسينو، ١٩٩٣م، صفحة ج/١٩). وشهد أواخر حكم عثمان غازي ومطلع حكم أورخان غازي (١٣٢٦-١٣٦٢م) توسعًا عثمانيًا آخر على طول نهر صقاريا حتى البحر الأسود ضد بايات (أمراء) مسلمين لا مسيحيين، مثل حملتهم على إمارة قره سي الساحلية المسلمة في عام ١٣٣٦م (Beldiceanu-Steinherr، ١٩٦٧، صفحة ٧٠).

وفي مقابل ذلك، كانت علاقات العثمانيين الأوائل بجيرانهم المسيحيين طيبة سلميةً. فبينما كانوا يتقدمون في مناطق البلقان (الروم إيلي) البيزنطية وكان من المفترض أن يركزوا. كما هو متوقع منهم بوصفهم "مجاهدين". على نشر الإسلام، لم يكن هذا الهدف ضمن أولوياتهم، وكانوا حريصين على بناء علاقات طيبة مع المسيحيين وإسناد مناصب مهمة في الدولة إليهم. فمثلاً، في أواخر عام ١٣٤٠م نقرأ عن وجود قضاة مسيحيين في بورصة (Darrouzès، ١٩٧٧، صفحة ٢١٩٨ no.). وفي عام ١٣٥٤م، أرسل الراهب البيزنطي الأسير لديهم غويغوري بالاماس Gregory Palamas (١٢٩٦-١٣٥٩م) رسالةً إلى كنيسته في سالونيك أنكر فيها وجود مضايقات للمسيحيين أو ضغط لفرض الإسلام عليهم، وذكر أن اعتناق الإسلام لم يكن شرطاً أساسياً لتولي مناصب عليا في الدولة، وأنه رأى المسيحيين والأتراك المسلمين يعيشون ويتحركون معاً، يقود بعضهم بعضاً (Philippidis-Braat، ١٩٧٩، الصفحات ١٦١، ٢٠٣-٢٠٥ . ١٠٩-٢٢٢). ويضمُّ كتاب عاشق باشا زاده (نحو ١٤٠٠-١٤٨٤م) معلومات استقاها من بيزنطي الأناضول ذكروا له فيها أن عثمان غازي في شبابه كان يهوى الصيد رفقة صديقه تكفور قرية "خرمن قيا قلعه سي" (إن حصار، بيله جك) المسيحي كوسه ميخال (ت. ١٣٤٠م) (عاشق، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، الصفحات ١١ - ١٢ - ١٤)؛ (الرمال، ١٤١٧-١٤١٨هـ/ ١٩٩٦-١٩٩٧م، صفحة ج/٢١٩) الذي اعتنق الاسلام طوعاً وصرار "يغزو" مع العثمانيين، وأن عثمان غازي قد حضر حفل زواجه^(٤)؛ بمعنى أن لقب الغازي لم يكن يعني "الجهاد" ولم يكن شخصية المجاهد المسلم، بل يعني حملات الصيد والغارات المشتركة التي يقوم بها العثمانيون والبيزنطيون معاً. وثمة أمثلة كثيرة أخرى لوجود علاقة طيبة

(٣) مفردها تكفور (أو تكور): لقب كان يُطلق في أواخر عصر سلاجقة الروم والعصر العثماني المبكر للإشارة إلى الأمراء المسيحيين أو البيزنطيين المستقلين أو شبه المستقلين في آسيا الصغرى وتراقيا. انظر: (Savvides، ٢٠٠١، الصفحات ٤٥١-٤٦١)

(٤) يذكر منجم باشي أن صداقة كوسه ميخال تأكدت عند عثمان غازي، حتى أنه كان يناديه أحياناً بـ"الأخ"، لمصلحة في تقوية أمر الدين وتمشية المجاهدين. (الرمال، ١٤١٧-١٤١٨هـ/ ١٩٩٦-١٩٩٧م، صفحة ج/٢٢٨).

بين الطرفين، منها ما ذكره عثمان غازي لشقيقه غوندوز ألب (١٢٤٣-١٢٩٩م) في حوار دار بينهما مفاده أن أنجع الطرق لإخضاع البلاد وتأسيس جيش هو كسب ثقة جيرانهم المسيحيين على المدى البعيد (بيلديسينو، ١٩٩٣م، صفحة ٢٠). والحقيقة إن علاقةً طيبةً كهذه تمثل مأزقًا لأنصار فرضية فيتك، لأنها تعني أن الدافع الديني لم يكن موجودًا حينذاك، سواءً كان "صليبيًا" لدى البيزنطيين أو "جهادًا" لدى العثمانيين. وبهذا الخصوص ذكر هربرت آدم غينز (١٨٨٠-١٩٣٤م) أن عثمان لم يكن متعصبًا، ولا حتى خلفاؤه المباشرين. ولو أنه بدأ في اضطهاد المسيحيين، لكانت الكنيسة اليونانية قد أخذت فرصةً جديدةً للحياة، وما كان بإمكانه أن يكسب المتحولين الذين تشكل منهم العرق العثماني (Gibbons، ١٩١٦، صفحة ٥٣).

أمّا السبب الآخر للتشكيك في النظرية فيتمثل في ممارسات العثمانيين الأوائل الدينية التي تبين أن الإسلام لم يكن راسخًا بينهم بقوة. ومع أن القبائل التركية كانت مسلمةً بوجه عام، إلا أنها لم تكن شديدة التمسك بالإسلام، بل كانت أكثر اتباعًا لتقاليدها البدوية المتوارثة المغلفة بصبغة إسلامية سطحية. وكانت تسود بينهم عادات البابائين العلويين أو "أهل البدع" التركمان الذين هم ليسوا سوى امتداد اسلامي للشامانيين الأتراك القدامى (كوپريلي، ١٩٦٧م، صفحة ٨٢)؛ (بيومي، شباط (فبراير) ١٩٨٧م، الصفحات ٢٧٣ - ٣٠٢). ويدل انتشار البدع هذا على ضعف التزامهم أو عدم نضج معرفتهم بالإسلام على الأقل. فمثلًا، تتحدث المصادر التركية القديمة عن اعتقاد أبناء إحدى قرى "الكفار" القريبة من يالوفا (يلوا) في عهد عثمان غازي بالقدرات السحرية لدرويش كان يعيش هناك يبيّن سلوكه وجود جو من التسامح، وتتحدث كذلك عن ممارسة العثمانيين طقوس القرابين البشرية والتحنيط حينذاك (عبدالعزیز، ١٩٢٢م، الصفحات ١١ - ١٢)^(٥). وعندما قُتل ابن شقيق عثمان غازي، أيدوغدو، في معركة قويون حصار (بافيوس) في ٢٧ تموز/ يوليو ١٣٠٢م، شاع اعتقادًا بأن ما كان يُقام عند قبره من طقوس يشفي المصابين بالحمى والخيول المصابة بالمغص (عبدالعزیز، ١٩٢٢م، صفحة ١٢) (عاشق، ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م،، صفحة ٢٢). وعندما لقي شقيقه الآخر ساوجي بك (١٢٤٩-١٢٨٧م)^(٦) حتفه في

^(٥)وعنوانه بالألمانية:

Die alt Osmanischen anonymen Chroniken, Friedrich Giese (ed. & tr.), Selbstverl. Breslau, 1922.

^(٦) يرد في المصادر بصيغ مختلفة، مثل: صاووجي، صارو ياتي، صارو بني، وصارو نبي وغيرها.

معركة دومانيج (طومانيج، التوائم) في عام ١٢٨٧م ضد البيزنطيين، نمت شجرة صنوبر في الموضع الذي قُتل فيه وكان ينبعث من قمتها لهبٌ غامضٌ بين الحين والآخر (عبدالعزيز، ١٩٢٢م، الصفحات ١١ - ١٢) (٧). وكذلك، أثار قبر "دده عيسى" (عيسى صوفي) في قرية بورجك القريبة من سوغوت ويعود تاريخه إلى بدايات تأسيس الإمارة العثمانية جدلاً واسعاً بين أهالي المنطقة لوجود رسومات للشامانية وعناصر وآثار مهمة فيه تشبه عقائد آسيا الوسطى السائدة بين البدو التركمان الذين وفدوا إلى الأناضول خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ويعتقد الأهالي أن ذلك الولي الصالح كان رفيق آرطغرل في السلاح. وزعم الخبراء الذين فحصوا القبر أن صاحبه كان من مؤسسي الإمارة العثمانية وكان يتزعم جمعاً كبيراً من التركمان المتأثرين بعقيدة إله السماء (كوك تنغري) الذين يميلون إلى العقيدة البكتاشية العلوية (Arıkan، ٢٠١٩، صفحة ١٢٧). ويسهل لنا هذا الموقع التوصل إلى استنتاجات دينية عن تطور انتشار الإسلام بين الأتراك والبنية الاجتماعية التي كانت سائدة بينهم. ويدل ذلك كله على أن تأثير الإسلام بين المحاربين العثمانيين الأوائل كان محدوداً، وهو ما يؤكد أستاذ العثمانيات المجري جيولا كالدي . ناي (١٩٢٧-٢٠١١م) بقوله "إن الإسلام وروح الجهاد لم يكونا راسخين بقوة بين الغزاة الأتراك الأوائل" (Kaldy-Nagy، ١٩٧٩-١٩٨٠، صفحة ٤٧٠).

تؤيد الوقائع التاريخية المعاصرة هذا الرأي كذلك؛ إذ لا نعرف بالضبط فيما إذا كان آرطغرل يدعو أتباعه إلى الجهاد أو لا، وإن كان هناك مسجدٌ باسمه في سوغوت (في بيله جك الحالية). ويمكن أن نفترض أن علاقته هو وأفراد قبيلته بالإسلام كانت ضعيفةً من خلال الأسماء أيضاً؛ إذ كانت أسماء شقيقه غوندوغو وسنونغور وولديه غوندوز وساجي تركيةً قديمةً، أي غير إسلامية (٨)، ما حدا ببعض المؤرخين إلى القول إن الاسم الحقيقي لابنه الثالث هو "أتمان" أو "أتمان"، لكنه غيّرهُ إلى "عثمان" بعد اعتناقه الإسلام تيمناً بالخليفة الراشدي الثالث (Gedikli, 2021, pp. 449-480). وكذلك كانت بعض أسماء أولاد هذا الأخير غير إسلامية: فلان بك وساجي بك وجوبان بك وبزارلي بك، فضلاً عن وارثه أورخان. وكذا الحال فيما يخص أسماء عدد من أبرز

(٧) وقال منجم باشي (مج ١، ص ٢٢٢-٢٢٣): "وكانت شهادته عند شجرة من أشجار الصنوبر، فكان أهل تلك الديار يشاهدون نزول الأنوار مثل القناديل على تلك الشجرة في الليالي المباركة، فسموها قنديلوجام".

(٨) تجدر الإشارة هنا إلى ما ذكره فاروق دميرطاش بقوله: "لو كان العثمانيون الأوائل مجموعةً من المحاربين القدامى، كما ادعى أحد الباحثين الأوروبيين، لكان عليهم أن يتخذوا أسماءً إسلاميةً قويةً بدلاً من الأسماء الوطنية التي كانوا يحملونها في الغالب". انظر: (Demirtaş، ١٩٤٨، صفحة ٦٠٢).

رفاقه: قونور آلپ وأقجه قجا وصمصه (سامسا) چاوش. أمّا القول بأنه من أهل السُّنَّة والجماعة، فلا صحّة له هو الآخر (كوپريلي، ١٩٦٧م، صفحة ١٢١) ^(٩). وحرّيّ بنا أن نستشهد هنا بما ذكره غينز بهذا الخصوص، إذ قال: ”يبدو واضحاً جداً أن عثمان وقبيلته عندما استقروا في سوغوت كانوا وثنيين. ولا يوجد ذكرٌ مباشرٌ في أي نصٍّ تاريخي لتحول قبائل خراسان وغيرها من مناطق ما وراء النهر إلى الإسلام“ (Gibbons، ١٩١٦، صفحة ٢٥). واستطرد قائلاً: ”إن أتراك الهجرة المتأخرة الذين نشأ منهم عثمان لم يقعوا تحت تأثير الإسلام قطّ، وإن كانوا قد استقروا لأجيال عدّة على حدود بلاد فارس. وإذا قبلنا شهادة العثمانيين أنفسهم بشأن نسبهم إلى سليمان شاه الذي ترك ماهان بخمسين ألف أسرة، فلدينا إشارة واضحة إلى كونهم غير مسلمين من رواية محمد نشري (١٤٥٠-١٥٢٠م) عن تشتت هذا الحشد بعد وفاته؛ إذ يقول إن بعضهم كانوا أسلافاً للتركمان السوريين وغيرهم من القبائل البدوية في بلاد الروم. وإن شهادة الرحّالة من القرن الثاني عشر فصاعداً تؤكد الطابع الوثني لهذه القبائل“ ^(١٠). وتخبّرنا المصادر أن تناول المشروبات الكحولية كان أمراً طبيعياً لدى العثمانيين الأوائل، إذ كان أورخان غازي على علاقة طيبة مع شيخ الطريقة القلندرية الصوفية الدرويش جيكلي بابا الذي شارك في غزو بورصة، وأنه كان يرسل له النبيذ ”لأن البابا معتادٌ على تناول المشروب“ (Mélïkoff، ١٩٩٣، الصفحات ١٣٧-١٣٦-١٤٤)، وهذا يوضح روح التسامح لدى السلاطين الأوائل وعدم تعصبهم فيما يخص المحرّمات الإسلامية بخلاف السلاطين اللاحقين.

يمكن أن نضيف إلى ذلك أن الحملات العثمانية الأولى لم تكن تهدف إلى نشر الإسلام بين المسيحيين في البلقان. ولو كان هذا قد حصل فعلاً، ما كان بالإمكان فرض ضريبة الجزية عليهم، ولا ضريبة الدم على أولادهم بموجب نظام الدوشرمة الذي تشكل منه أساس القوة الضاربة العثمانية (الإنكشارية). وفيما عدا ذلك، لم يكن الأتراك العثمانيون يرغمون أحداً على ترك عقيدته، ولا يكلفون أنفسهم بإقناع أحد، ولم يكونوا يبالون بمن يخالفهم في الدين أصلاً. وإذا كانت بعض المصادر، مثل عاشق باشا زاده، تذكر اعتناق قرى مسيحية بأكملها للإسلام خلال الحملات العثمانية، فهي مشكوكٌ فيها لاستنادها إلى روايات شفهوية، وهو ما أكدته المؤرخين الأتراك

^(٩) في ردّه على مقال المؤرّخ الهولندي يوهانس هندريك كرامرز المعنون ”من هو عثمان؟“ في: (Kramers، ١٩٢٨، صفحة

^(١٠) Ibid., pp. 25-26.

محمد فؤاد كوپريلي (١٨٩٠-١٩٦٦م) أيضاً (كوپريلي، ١٩٦٧م، صفحة ١٤٣). واستناداً إلى ذلك يمكن القول إن اعتناق مسيحي الأناضول الاسلام خلال القرن الرابع عشر كان تدريجياً ومحدوداً، وإن لم يتسارع إلا بعد أن رسّخت أقدام العثمانيين في البلقان، أي في القرن الخامس عشر على الأكثر (كوپريلي، ١٩٦٧م، صفحة ١٤٤). ومن الثابت حالياً أن أصحاب المناصب من حديثي العهد بالإسلام لم يكونوا أكثر من بضعة أشخاص.

يتبين من ذلك أن دافع الجهاد كان شبه معدوم لدى العثمانيين الأوائل مقارنةً بعوامل أهم لديهم، مثل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والتنوع السياسي والديني، وإن كان إنكار وجوده يثير سؤالاً آخر هو: كيف انتقل جاء مصطلح "الغزو" الذي استشهد به فيتك؟ والأهم من ذلك، ما سبب وجوده على جامع "شهادت" في بورصة بالذات؟ الجواب هو إن أورخان غازي كان بحاجة إلى خبرة الفقهاء المسلمين والدرائش لمساعدته في تنظيم الإدارة في إمارته، بسبب ما لاحظته من سوء إدارة الأباطرة البيزنطيين المعاصرين^(١١)، ووجد ضالته في أولئك الفقهاء والدرائش الذين وضعوا له أسس الإدارة العثمانية الأولى، ولكن سرعان ما تزايدت أعدادهم في غرب الأناضول بسبب الفوضى والاضطرابات التي عمّت وسط البلاد في عشرينيات القرن الثالث عشر وثلاثينياته الناجمة عن تصارع أمراء المغول وتمردهم ضد حكومة المغول المركزية (Cahen، ١٩٦٨، الصفحات ٣٠١-٣٠٢)، بحيث أهملوا الفقهاء والدرائش، فاضطرّ هؤلاء إلى البحث عن فرص عيشهم في مناطق أخرى بحاجة إليهم. وقد وقرّ أورخان غازي الحماية والسلطة لهم. وفي المقابل، نقلوا معهم إلى الإمارة العثمانية خبرتهم ومفاهيمهم الإدارية، ومن بينها مصطلح "الغازي"، فالتقطه أورخان غازي منهم وأمر بنقشه على الجامع بغية شرعنة الحكم العثماني الجديد أمام المجتمع المستقر (Lindner، ١٩٨٣، الصفحات ٧، ٢٩-٣٧). وبالتالي، فإن الألقاب الواردة فيه تعكس الصورة التي كان السلاطين العثمانيون يريدون تسويق أنفسهم بها أمام مجتمعهم الجديد، لا ما كان قائماً بالفعل. وقد بذل مؤرّخو القرن الخامس عشر جهداً استثنائياً لمطابقة أفعال سلاطين القرن الماضي (الرابع عشر) مع هذا المفهوم لتبدو متوافقةً معه. فمثلاً، لم اسم عثمان مقرونًا بمفردة "غازي" في زمنه، لكن مؤرخي القرن التالي ألقوها باسمه لتتوافق مع توجهاتهم السياسية. وما يؤيد ذلك، إن العُمَلات التي ظهرت في الآونة الأخيرة وسُكّت باسمه وفي عهده لم تكن تطلق لقب "غازي" عليه (Yılmaz، ٢٠١٨، الصفحات ٧٦٣-٧٨٨)؛ (Gâzî'nin، Aralık، ٢٠١٩، الصفحات ٨١-١٢٠).

(١١) ميخائيل الثامن باليولج (١٢٥٩-١٢٨٢م) وأندرونيكوس الثاني باليولج (١٢٨٢-١٣٢٨م).

كان لا بدّ من إعادة النظر في فرضية فيتك وإثبات ضآلة دور الدافع الديني في قيام الإمارة العثمانية وإبراز دور العامل القبلي في مقابل ذلك؛ ذلك أن عقيدةً كالجهاد ومنظومةً شاملةً كالقبيلة لا يمكن أن تتجحا وتسيراً جنباً إلى جنب في بيئة متنوعة الأعراق والأديان، بخلاف ما ذهب إليه فيتك الذي بالغ في تأكيد دور الجهاد في التاريخ العثماني المبكر في ذات الوقت الذي أكد فيه أن العثمانيين الأوائل كانوا منظمين قبلياً. ولكن على الرغم من نجاحه في نقد الروايات عن أصل العثمانيين ونجاحه في تفنيد انتماء العثمانيين لأصل مشترك، كانت استنتاجاته مبنيةً على افتراض خاطئ، وغاب عن باله أن الدراسات اللاحقة يمكن أن تقوضها وإن كنا لا ننكر دوره المهم في إثبات طبيعتهم القبلية من خلال كشف التناقضات في أنسابهم.

ثانياً: الضغط المغولي واندفاع القبائل البدوية التركية من شرق الأناضول إلى غربه

كان هدفنا الأول نزع الشرعية عن فرضية الغزو (الجهاد) التي دعا إليها فيتك. والآن سنسلط الضوء على تطور المظاهر القبلية والبدوية لدى العثمانيين الأوائل منذ دخول المغول إلى مناطق شرق الأناضول حتى ظهور بواخر الإمارة العثمانية في غربه في أواخر القرن الثالث عشر.

أدى انتصار السلاجقة على البيزنطيين في معركة ملاذكرد (٢٦ آب/ أغسطس ١٠٧١م) إلى إزالة آخر عقبة أمام اندفاع البدو الأتراك غرباً، إذ زاد تدفقهم إليه خلال القرون التالية لطبيعة مناطقه الجاذبة والمثالية للرعي. ولم يتمكّن البيزنطيون من إيقاف هجرتهم ومطاردتهم لمهارتهم في الاختباء في تعرجات مراعيهم الصيفية (بايلاق) المرتفعة وخفّة أدواتهم وسرعة خيولهم التي سهّلت لهم تفادي الحصون البيزنطية؛ فكانوا لا ينزلون إلى الوديان إلا في موسم الشتاء بسبب توقف الهجمات البيزنطية، الأمر الذي كان يثير غضب البيزنطيين الذين اتهموا السلاجقة بتشجيع هذه الهجرات البدوية التي مثلت . برأيهم . انتهاكاً للاتفاقات وسبباً لقيام حرب بين الطرفين، وهو ما حدث فعلاً في معركة ميريوكيفالون (٢٧ أيلول/ سبتمبر ١١٧٦م) التي انتصر فيها السلاجقة (بقيادة قلع أرسلان الثاني، ١١٥٦-١١٩٢م) عليهم (بقيادة مانويل الأول كومنينوس، ١١٤٣-١١٨٠م)، وأدت إلى حصر حملاتهم بهجمات صيفية متفرقة (Choniates، ١٩٧٥، الصفحات ٤٩٦-٤٩٧). غير أن تقدم البدو الأتراك غرباً كان لدوافع اقتصادية وبيئية أكثر من كونه نتيجة صراعات سياسية أو دينية، ذلك أن معيشتهم كانت

قائمةً على غارات النهب والسلب أساسًا لا على أي عامل آخر. وخلال مواسم الشتاء كانت تربية الأغنام والماعز في الوديان توفر بيئةً أدفأ وآمن لهم مقارنةً بأجواء المرتفعات الباردة. ولضمان فرص مثالية للرعي وخفض الخسائر في القطعان، وسَّعوا نطاق مراعيهم لتشمل أفضل الأراضي الزراعية، بضمنها البيزنطية. ولكنهم واجهوا مصاعب في إنتاج الحبوب والسلع المصنَّعة التي ما كان بإمكانهم الحصول عليها إلا بالمقايضة مع المجتمعات المستقرّة. ولذلك كانت الغارات أفضل وأسهل وسيلة لتوفير احتياجاتهم من السلع التي لا يوفرها لهم الرعي.

وخلال عامي (١٢٠٢-١٢٠٤م) أرغمت الحملة الصليبية الرابعة التي انتهت بسقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤م وتأسيس الإمبراطورية اللاتينية البيزنطيين على مضاعفة الاهتمام بالأناضول والحدود الشرقية لدولتهم، وتجلّى ذلك باهتمام الأباطرة اللاتين (الإسكاريين، الذين تسميهم المصادر العربية والعثمانية "لشكر") بإعادة بناء إمبراطوريتهم اقتصاديًا وعسكريًا في إزنيق (نيقية اليونانية) أولًا، ثمّ إلى الجنوب الغربي منها في نيف (نيمفايوم، كمال باشا الحالية في إزمير) عام ١٢٦١، بغية توفير الموارد لحملاتهم في أوروبا ومواجهة التهديدات المحدقة بالقسطنطينية، وأدى ذلك إلى انتعاش اقتصاد الأناضول والإنتاج الزراعي الذي شهد طفرةً كبيرةً خلال أكثر من نصف قرن من حكمهم (١٢٠٤-١٢٦١م) في المناطق الجنوبية، ولاسيما في وديان نهري جديز ومندريس (Pachymeres، ١٨٣٥، الصفحات ٦٨، ٧٠، ٧١).

في ثلاثينيات القرن الثاني عشر انتزع المغول من البدو التركمان أربع مناطق للرعي في أذربيجان (تسمّى "أورام") كانت كل منها تضمُّ عشرة آلاف رجل، ما أدّى إلى نزوح نحو ٢٠٠ ألف منهم غربًا، وقاد هؤلاء سلسلة انتفاضات في وسط الأناضول عُرفت باسم ثورة البابائيين (بابائيلر قيامي) خلال (١٢٣٩-١٢٤٠م). ومع أن السلاجقة تمكَّنوا من قمعهم، إلا أنهم هُزموا لاحقًا على يد المغول (في معركة قوصه داغ في ٢٦ حزيران/ تموز ١٢٤٣م) الذين أرغموهم في خمسينيات القرن الثالث عشر على السماح لمزيد من البدو الأتراك بدخول الأناضول، ما تسبَّب في هجرة موجة أخرى من اللاجئين غربًا، وبالتالي ظهور أولى بوادر التضاد الاجتماعي والاقتصادي بين أولئك البدو وأهل الحضر المستقرين (كوپريللي، ١٩٦٧م، صفحة ٨٢). وأدّى استمرار الضغط المغولي على السلاجقة في عام ١٢٧٧م إلى هجرة المزيد من أولئك البدو الذين اعتمدوا على الغزوات لتوفير مستلزمات عيشهم من المراعي لصعوبة العيش في موطنهم الجديد على حدود الأناضول الشمالية الغربية. وحينما اغتصب ميخائيل الثامن باليولوج عرش نيقية في عام ١٢٥٩م انتقل إليه الشطر الشرقي (الأناضولي) من بيزنطة سلمًا. وبعد نجاحه

في انتزاع القسطنطينية من اللشكر اللاتين في عام ١٢٦١م، أبعدها رعاياه في الأناضول في وقت كانت القبائل البدوية التركمانية الهاربة من الزحف المغولي لا تزال تتقدم وتتمركز في غرب الأناضول (Lindner، ١٩٨٣، صفحة ١٤). وأدى استمرار الضغط المغولي والصراع الداخلي بين الأمراء السلاجقة إلى اشتداد الشعور بالخطر غرباً، فانتهز هذه الفرصة لتجنيد القبائل التركمانية الوافدة. وقدم المؤرخ البيزنطي يوربوس باخيميريس (George Pachymeres)، (١٣١٠-١٢٤٢م) صورةً للفوضى الحدودية حينذاك قال فيها إن "سكان الخيام كانوا يعارضون فكرة الحكومة ويطمحون إلى الاستقلال ويهاجمون حصون بيزنطة"^(١٢). ولهذه الإشارة أهمية كبيرة؛ فبعد أن انتزع المغول المراعي الشرقية، هاجرت أعداد كبيرة من البدو التركمان غرباً، واستقر بعضهم في مناطق الحدود البيزنطية بحثاً عن فرص للعمل، ولكنهم لم يقووا على خوض حروب الحصار لقلّة خبرتهم فيها، فأصبح بعضهم مرتزقةً لبيزنطة، فيما لجأ آخرون إلى أساليب البدو التقليدية لانتزاع لقمة العيش من الريف.

ثالثاً: جذور العثمانيين الأوائل القبلية في المصادر التركية القديمة (العثمانية)

هنا لا بدّ من تسليط الضوء على بدايات تلك القبيلة كما وردت في المصادر التركية القديمة (العثمانية) لأنها تقدّم صورةً شاملةً عن السلاطين الأوائل وتتضمّن قضايا أساسيةً بحاجة إلى معالجة؛ إذ سعى المؤرخون العثمانيون اللاحقون إلى تدوين رواياتهم بما ينسجم مع سياسة الدولة العامة ومزاج السلاطين. غير أن عملية تنقيح تلك الروايات وتشذيبها لتتوافق مع الرواية الرسمية أدت إلى ظهور نصوص جديدة هي التي بين أيدينا اليوم، وتتطلب دراستها قراءةً ناقدةً تتجاوز حالات الحشو والتكرار وتعتمد الوقائع حصراً؛ ذلك أن الروايات غير المنقحة تكشف حقائقاً أصدق وأدق من الروايات المؤدّجة المنقحة التي تمثل وجهة النظر الرسمية اللاحقة وتهمل ما لا ينسجم مع سياسة الدولة، ولكونها مستقاةً من مصادر أصيلة، فهي أدق من الروايات الرسمية المنقحة غير الدقيقة. ولذلك فإن التحليل التالي يعتمد على مواد نبذتها أو أغفلتها الروايات المنقحة الحالية.

(12) Ibid., pp. 133, 222-223.

بدايةً، ليست لدينا معلوماتٌ مؤكّدةٌ عن أسلاف عثمان غازي إلا ما ندر؛ إذ زعم العثمانيون أنهم قبائل بدويةٌ هاجرت إلى آسيا الصغرى هرباً من المغول وبحثاً عن مراعي جديدة، وادّعوا أن نسبهم ينتهي بقبيلة الأوغوز. وفي منتصف القرن الثالث عشر وصلوا إلى المرتفعات القريبة من أنقرة، فقرّر بعضهم العودة شرقاً، فيما اتّجه آخرون جنوباً نحو قيليقية (عاصمة مملكة أرمينيا الصغرى)، والتقت مجموعةٌ أخرى حول آرطغرل الذي دخل مع قبيلته في خدمة السلاجقة. وذكر المؤرّخ محمّد باشا نيشانجي القراماني (١٤٥٨-١٤٨١م) أن والده كوندوز ألب قاتل البيزنطيين لوحده، وحصل آرطغرل على قطعة أرضٍ للرعي مكافأةً على خدماته للسلطان السلجوقي، وجاء فيما ذكر:

”... تولى كوندوز ألب [ابن كوك ألب] رياسة القوم، وكان جاراً للكفار، فاشتغل بالقتال معهم، فأجاب داعي الله في قزل سراي، فتاب منابه ابنه الأمير الكبير آرطغرل... ثم إن الملك المرحوم علاء الدين السلجوقي [كَيْقُبَاذ الأول، ١٢٣٨-١٢٥٦م] توجه من قونية [إيكونيوم] إلى نواحي الروم للغزو. فعلم الأمير آرطغرل ذلك، فأرسل لإظهار المودة رسولاً إلى السلطان المشار إليه... ثم سلك سبيل المبايعة والانقياد ووافق السلطان في الغزو والجهاد. ثم إن الملك حاصر القلعة الكافرية الموسومة بـ ”قراجا حصار“ وفوض أمر جانبها الجنوبي إلى الأمير آرطغرل، فبلغ إلى السلطان أن تاتار [التتار] أخذوا في الطغيان ونقضوا عهدهم، وفي تخريب الممالك بذلوا جهودهم، فشغل ذلك الخبر الكريه قلب السلطان النبيه، فنّبّه الأمير بذلك الخبر وترك عنده شزيمةً من العسكر الجرار، وفوض إليه الجهاد والقتال مع الكفار... فظفر الأمير آرطغرل على الكفرة المتمردين وقطع دابر القوم الذين ظلموا. ثم اشتغل بالغزو سنتين اثنتين وثلاثة أشهر حتى وقعت الواقعة“ (٢٠٢٣، Yilmaz H.، الصفحات ٦٣-٦٤)؛ (الرمال، ١٤١٧-١٤١٨هـ / ١٩٩٦-١٩٩٧م، الصفحات ٢٢٣-٢٢٤).

ومع ذلك، ليست جميع الروايات العثمانية المتعلقة بآرطغرل صحيحةً، وإن كانت تتفق على أنه أبلَى بلاءً حسناً في أثناء حصار قره جه حصار عام ١٢٨٨م، فنال إعجاب السلطان السلجوقي غياث الدين مسعود (في ولايته الأولى، ١٢٨٤-١٢٩٧م) الذي سمح لجنوده بالتعسكر في الجهة الجنوبية المقابلة للأسوار. ولكن بعد أن

أسفر الغزو المغولي لوسط الأناضول عن طرد السلاجقة، كلفوا أرطغرل بمحاصرة القلعة، فاستولى عليها وشرع في شنِّ غارات أخرى على الأراضي البيزنطية في المنطقة. وتكمن المشكلة في هذه الرواية في أن أسكي شهير كانت تحت سيطرة السلاجقة منذ مطلع القرن الثالث عشر، في حين تقع قره جه حصار على بعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب الغربي منها. ولذلك يبدو أنها ملفقة، إمَّا لتعظيم مكانة أرطغرل على حساب السلاجقة، أو أنها نسخة منقَّحة لرواية سقوط صورليم (دوريليوم البيزنطية) وضواحيها بيد السلاجقة قبل نحو قرن من ذلك (٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١١٤٧م). فإذا كانت معركة قره جه حصار هي أولى غزوات أسلاف العثمانيين، فلا بدَّ أن يكون ذلك قد تحقَّق على حساب إمارة جيرميان المسلمة، وهو ما يتفق مع ما ذكرناه سابقًا. ثمَّ تذكر المصادر أن أرطغرل توفي بُعيد ذلك (عن عمر ناهز ٩٣ عامًا) بعد أن قاد سلسلةً من الحملات الظافرة ضد البيزنطيين (٢٠٢٣، Yılmaz H.، صفحة ٦٤). وهذه هي أول إشارة له في المصادر. ولكن المشكلة ليست هنا، بل في عدم وجود أي مصدرٍ يقدِّم معلومات قويةً وواقعيةً عنه، وإن كان المؤرِّخون عموماً يرون أن دوره محوريًّا في نشأة الإمارة التي نُسبت إلى ولده لاحقًا؛ فهو الذي قاد القبيلة إلى حدود بيزنطة، واستحصل موافقة السلطان السلجوقي على وجودها. وبينما لا يوجد أي دليل مادي على هذه الأحداث، إلَّا أن من الغريب ألاَّ تذكره المصادر رغم دوره المهم في التاريخ العثماني المبكر، ولعلَّ ذلك يُعزى إلى عدم وجود نَسَب واضح له^(١٣)، في حين نُسبت السلالة إلى ابنه عثمان غازي الذي ارتبط اسم الدولة والشعب به.

وبينما لا تزال معلوماتنا عن أرطغرل نادرةً، فالمعلومات عن ابنه عثمان غازي حقيقيةٌ ولموسسةٌ؛ فقد عُثِر على عملات معدنية باسمه، وخلده ابنه ووراثه أورخان غازي في النقوش والمسكوكات كذلك، وكتب عنه المؤرِّخ البيزنطي المعاصر باخيميريس، وإن كانت كثيرٌ من تفاصيل حياته وأعماله لا تزال غامضةً، مثل كيفية وصوله إلى السلطة. فمثلاً، ذكر المؤرِّخ العثماني حسن بن عبد العزيز في تواريخ آل عثمان (يعود إلى عام ١٥٩٦م) أنه حلَّ محل أرطغرل وصار نائبه (قايم مقام) في أراضيه (عبدالعزیز، ١٩٢٢م، صفحة ٦)^(١٤). وتثير هذه العبارة

(١٣) قارن ما ذكره فيتك بهذا الشأن (ص ٢١)، إذ شكك بنسب سليمان شاه والد أرطغرل قائلاً إنه لم يكن سوى الأمير السلجوقي سليمان بن قتلش الذي ارتحل إلى بلاد الشام بعد أن غزا الصليبيون إزنيق (نيقية) في عام ١٠٩٧، ولقي حتفه في إحدى المعارك بالقرب من حلب.

(١٤) حسن بن عبد العزيز، ص ٦. انظر كذلك ما ذكره القرمانلي بقوله: "فلما سمع السلطان [علاء الدين] وفاته [يقصد أورخان] تأسَّف عليه، وعيَّن مكانه ولده السلطان [كذا] عثمان بيك الغازي". (القرمانلي، ١٩٩٢م، صفحة ٣/٧).

سؤالين: مَنْ الذي عيَّنه نائباً؟ ونائب مَنْ كان؟ لا يجيب المؤلف عن هذين السؤالين لسبب بسيط، فهو يعزو إلى القرن الثالث عشر منصباً إدارياً عثمانياً لم يُستحدث إلا بعد قرن، ولم يكن موجوداً لدى أي من القوى المعاصرة. وكان منجم باشي (ت. ١٧٠٢م) أدق في مراعاة التسلسل الزمني لهذه الحوادث حينما قال في **جامع الدول** إن "السلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ [الثالث (١٢٩٨-١٣٠٢م)] أرسل إلى عثمان غازي علماً وطبلاً ونقارة، وقلده المُلْك على جميع أمراء الحدود وعلى ما يفتحه من بلاد البيزنطيين (الكفرة)". ثمَّ حصل على تأييد أعيان القبائل وأمراء الحدود الذين "أجلسوه على عرش الحكم" (الرمّال، ١٤١٧-١٤١٨هـ / ١٩٩٦-١٩٩٧م، صفحة مج ١ / ٢٣٢). وفي مخطوطٍ لهذا المصدر استخدمه الباحث التركي خاقان يلماز، وردت هذه الحادثة بالصيغة التالية:

"ولما انقرضت دولة السلاجقة عن الروم، أنف أمراء التركمان من إطاعة أمراء مُغل [المغول]، فاجتمعوا على عثمان الغازي، وكان قد عَظُم شأنه جدًّا، وقلده المُلْك السلطان علاء الدين كما سبق آنفًا، فبايعوه بالسلطنة بوضع الركنة [؟] يديه على الأرض تورة أغوز خان، وأعطى السلطان كل واحد منهم قدها من اللبن الحامض، فشرّبوه على طاعته، فتَمَّ أمر البيعة في سنة ٦٩٩ [هـ]، أو رأس السبعمئة. وأندا [؟] الخطبة بالسمة، فكانت قبل ذلك بعده سنتين. ولما بويع بالسلطنة اتخذ بلدة يكي شهر دار الملك لنفسه في سنة إحدى سبعة مائة، وقسم البلاد المفتوحة بين أولاده وأمرائه" (Yilmaz H., ٢٠١٨، صفحة ٨٩).

وثمّة روايةٌ أخرى مشابهةٌ ذكرها أحمد بن يوسف القرمانى (ت. ١٦١٠م) تحدث فيها عن تفاصيل تعيين

عثمان غازي، ذكر فيها:

"فلما رأى السلطان علاء الدين جدّه واجتهاده في الجهاد، وعلم نجابته في فتح تلك البلاد، أكرمه وأمدّه بأنواع الإعانة والإمداد، وأرسل إليه الراية السلطانية والخلع السنّيّة والطبل والزمر. فلما ضرب الطبل بين يدي السلطان [كذا] عثمان بيك، نهض قائماً على قدميه إعظاماً للسلطان علاء الدين" (القرمانى، ١٩٩٢م، صفحة ج ٣ / ٧).

وكان قد أشار إلى أن تعيين عثمان غازي كان قبيل وفاة السلطان علاء الدين الذي "عَظُم بلاؤه من التتار،

وقد شاخ وكبر سنُّه وعجز عن الحركة والنهوض، فاشتغل بنفسه عن غيره، فتسلطن عثمان الغازي في البلاد التي افتتحها“ (القرماني، ١٩٩٢م، صفحة ٨).

بالعودة إلى رواية نيشانجي القرماني، فقد ذكر أن عثمان غازي خلف أباه في عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩-١٣٠٠م، وأرسل له السلطان السلجوقي علاء الدين كَيْقُبَاد الثالث هدايا قيِّمة وشارات الحكم وحثَّه على مواصلة الجهاد (٢٠٢٣، Yilmaz H.، صفحة ٦٤). ومع أن هذه الرواية غير دقيقة بالكامل وتتضمَّن معلومات لا تتوافق مع ذلك العهد، إلَّا أن فيها تفاصيل مهمَّة؛ فلم تصبح شارات الحكم سمةً في المراسم العثمانية إلَّا في وقت لاحق، ولم يثبت تاريخياً أن السلاطين السلاجقة كانوا يسمحون باعتلاء حاكم في مطلع القرن الرابع عشر، لأن حكمهم هُم كان مهدداً بالزوال. وكان الأجدر بعثمان غازي أن يطلب موافقة سيده خان المغول قوبلاي خان (١٢٦٠-١٢٩٤م) الذي كان صاحب السلطة الحقيقية آنذاك. وتتضمَّن الرواية بعض الأخطاء المنطقية والتاريخية البسيطة الأخرى أيضاً؛ فبينما كان جائزاً إشراك سلالة أخرى في منح العثمانيين حق وراثة العرش، كان إطلاق لقب ”سلطان“ على عثمان غازي لتجنب الإيحاء بتبعيته للسلطان السلجوقي يضعف صدقيتها. وبينما كان طبيعياً أن يعيِّن السلاطين أمراء، إلَّا أنهم كانوا يعارضون بشدة وجود سلاطين منافسين.

ومع ذلك، ثمة مصادر أخرى سلَّطت المزيد من الأضواء على مسألة اعتلاء عثمان غازي العرش. فمثلاً، ناقش المؤرِّخ حسن بن محمود بياتي (ت. ١٤٨١م) التاريخ المتفق عليه، وهو عام ١٢٩٩-١٣٠٠م، وأقرَّ بأن الحكم السلجوقي كان قد سقط آنذاك بعد اضطراب أحوال السلطنة إثر وفاة آخر سلطان سلجوقي غياث الدين مسعود، ما دفع غزاة الحدود إلى انتخاب عثمان غازي حاكماً لهم (بياتي، ١٣٣٣ / ١٩١٤م، صفحة ٤٣). وثمة ما لا يقل عن خطأ واحد في هذه الرواية؛ فإذا كان غياث الدين مسعود قد توفي بعد عام ١٣٠٠م، فماذا يقصد بياتي بقوله إن عثمان غازي جاء بالانتخاب؟ ولمَّا كان بياتي قد أتمَّ تأليف كتَّبه في عام ١٤٨١م، أي بُعيد وفاة السلطان محمَّد الثاني واندلاع الصراع على العرش بين ولديَّه بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢م) والأمير جم (١٤٥٩-١٤٩٥م) وأهداه إلى الأخير الذي خسر الصراع، فلعلَّه كان يريد من إقحامه هذه الرواية تأكيد وجود سابقة تاريخية تسوِّغ دعم أنصار الأمير جم أمام بايزيد الثاني الذي كان يحظى بتأييد قادة الجيش والإنكشارية (اليكيجيرية). وبالتالي، لم تكن هذه الرواية سوى سابقة تاريخية يمكن أن تتسحب على حالات مماثلة. وقد أيد عاشق باشا زاده رواية بياتي بقوله إن عثمان غازي بويع لخلافة والده آرطغرل في سوغوت (سكوتجك) (عاشق،

١٣٣٢هـ / ١٩١٤م، الصفحات ٧-٨)؛ (خليفة، ٢٠٠٩م، صفحة ١٣٧). وثمة روايةً مختلفةً أخرى عن انتخابه انفرد فيها نشري قال فيها:

”أراد بعض بدو الخيام انتخاب عثمان غازي زعيمًا لها، بينما فضّل آخرون عمّه دوندار. إلا أن أهل عثمان غازي فضّلوه وأبلغوه سرًا قبل التشاور مع الجميع. ولمّا جاء دوندار ورأى تفضيل القوم لعثمان غازي، ترك طموحه في الإمارة وبايعه“
(Mehmed Neşri، ١٩٤٩، صفحة ٦١).

هناك إذن أسبابٌ وجيهةٌ للاعتقاد بأن زعامة العثمانيين حينذاك كانت بالانتخاب. وليس بالضرورة أن تكون للابن البكر، بل لمن يراه القوم الأفضل للقيادة، ما يعني أنهم كانوا لا يزالون متمسكين بعاداتهم القبلية في انتخاب زعيمهم، وهو من عادات البدو في آسيا الوسطى والأناضول؛ إذ يقع الاختيار على أكفأ المرشّحين لزعامة أتباعه. وإذا ثبت عجز أي من أقرباء الزعيم المتوفى في حماية أفراد قبيلته، يتقدم مرشّح آخر أو يختار رجال القبيلة الانضمام إلى قبيلة أخرى، ويعبّرون عن اختيارهم بأبسط الطرق من خلال الانحناء نحو مرشّحهم ثلاثًا (Barth، ١٩٦١، صفحة ٨٤). وبالتالي، فالأدلة الواردة عن انتخاب عثمان غازي قويّةٌ بما يكفي للقول بأن القبيلة هي أقدم مؤسّسة عثمانية.

يستمر هذا الغموض في تسلسل الأحداث عن حياة عثمان غازي حتّى عام ١٣٠٢م؛ فقد كان هو ورفاقه يمارسون السلب والنهب. وتروي المصادر قصصًا شعبيةً عن الكمائن والمعارك التي تشهد على بطولاتهم وتحدث عن طبيعة نشاطاتهم وطبيعة علاقاتهم بالقوى المجاورة، وإن كانت تركز على غارات النهب أكثر من تركيزها على الرعي. ومع ذلك، تباينت الآراء في وصف تلك الغارات؛ فبينما يراها فريقٌ بطولات للألپ^{١٥} (أي لقبائل تركية بدوية)، يراها فريقٌ آخر تجسيدًا لدوافع دينية حقيقية لغزاة مجاهدين (أي لمسلمين). وكان غرضهم من التلاعب بالمسمّيات حماية أنفسهم أمام السلطة ليس إلّا، وهذه من المسائل التي تستحق التركيز، لأن المؤرّخين اللاحقين أطلقوا على عثمان وأورخان وأتباعهما لقب ”غازي“، في حين لم يكن هذا اللقب شائعًا في عصرهما، بل لقب

^{١٥} كلمة تركية قديمة تعني المحارب الشجاع. (مُحمود، كانون الثاني (يناير) ٢٠١٩م، صفحة ٧٧).

”الپ“ (عبدالعزيز، ١٩٢٢م، صفحة ٧)، لقناعتهم أن دوافع تلك الغارات لم تكن دينيةً، بل بطولات تتعلق بكسب الغنائم من أعدائهم. وهذا الطرح يسوّل فهم بعض الروايات عن حملات الصيد البعيدة التي كان يقوم بها عثمان غازي مع بعض رفاقه المسيحيين، مثل كوسه ميخال كما سبقت الإشارة. ويؤكد هذا التنوع الديني والعرقي في حاشيته وجود مصالح مشتركة دفعت البيزنطيين إلى الانضمام لقبيلته، ويقودنا إلى القول إن علاقته بجيرانه المسيحيين في أيام السلم، التي يسميها عاشق باشا زاده ”مُدارة“ (عاشق، ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م، الصفحات ٨-٩، ١٢-١٤)، كانت قائمةً على الاحترام وحُسن النية (عاشق، ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م، صفحة ١٦)؛ (بيليديسينو، ١٩٩٣م، صفحة ٢٠). وحينما خضع الفلاحون البيزنطيون لزعامته، أقرّهم على ممتلكاتهم (بيليديسينو، ١٩٩٣م، صفحة ٢٢)، ليعزز علاقة المنفعة المتبادلة نظير ما كان يقوم به من تخزين بضائعه لدى تكفور بيلاه جك البيزنطي حينما يعترض تكفور إنغول^(١٦) البيزنطي آيا نيكولا (أينه نيقوله، ١٢٧٨-١٢٩٩م) رحلاته من مراعي الشتاء (قتلاق) إلى مراعي الصيف (يايلاق). وكان هذا التكفور يسمح له بحفظ أمتعه في قلعه كلاً ما ذهب إلى مراعي الصيف، مقابل سجاد وجبن وحملان (بيليديسينو، ١٩٩٣م، صفحة ١٩)؛ (كوپريلي، ١٩٦٧م، صفحة ٧٩)؛ (الرمّال، ١٤١٧-١٤١٨هـ / ١٩٩٦-١٩٩٧م، الصفحات مج ١ / ٢٢٨-٢٢٩). وكذلك، كانت النساء يحملن أمتعتهن على الثيران ويحفظنها في قلعة بيلاه جك المشهورة بمراعيها، مقابل جبن وسجاد وبُسُط وأغنام عند عودتهن في الخريف (بيليديسينو، ١٩٩٣م، الصفحات ٨-٩-١٤) ^(١٧). ونعلم أن عثمان غازي أنشأ في أسكي شهير سوقاً بجوار حمّام كان مسيحيو بيلاه جك يترددون إليه لبيع طاسات الماء التي اشتهرت بها المدينة. وحتّى في حالات الخلاف، كان ينصف المسيحيين ويقتصّ لهم ويعيد إليهم حقوقهم من المسلمين لكونه زعيماً قبلياً مسؤولاً عن الجميع ولا يفرق بين هذا وذاك (عاشق، ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م، الصفحات ١٤ - ١٥)؛ (بيليديسينو، ١٩٩٣م، صفحة ١٩). وهذا هو السبب الرئيس في تصاعد مكانته وتوسّع قبيلته. وحينما ندرس ظروف التوتر مع جيرانه الأعداء في إمارة جيرميان في الجنوب الغربي والتهديد المغولي في الشرق، ندرك أن قراره بالسعي إلى التعايش السلمي مع البيزنطيين الأضعف نسبياً كان منطقيّاً، ولاسيّما أن بعضهم أدركوا قدرته الإدارية والعسكرية

^(١٦) يرد اسمها في المصادر بصيغ مختلفة، مثل: أينه گول، عنكوله، عنان كلي. انظر: (خليفة، ٢٠٠٩م، صفحة ١٣٣)؛ (الرمّال، ١٤١٧-١٤١٨هـ / ١٩٩٦-١٩٩٧م، الصفحات مج ١ / ٢٢١ - ٢٣١).

^(١٧) أن عثمان غازي عندما سُئل ذات مرّة عن سبب حُسن تعامله مع المسيحيين في بيلاه جيك، أجب: ”أنهم جيراننا. لقد جننا إلى هذه الأرض غرباء، فأحسنوا استقبالنا. وعلينا أن نحترمهم“ (عاشق، ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م، صفحة ١٦)

وانضموا إلى قبيلته وأصبحوا من أتباعه، أي عثمانيين.

رابعاً: التحول من نظام القبيلة البدوي إلى نظام المجتمع المستقر

يعكس صعود عثمان غازي وتأسيس إمارته الصراع المستمر بين البدو والحضر، وهي العملية التي رافقها اندماج بيزنطي الأناضول بالعثمانيين البدو. ومعنى ذلك أن مناطق الحدود لم تكن تضم مراعي البدو أو أشباه البدو الصيفية والشتوية فحسب، بل كان بها عدد كبير من القرى والقصبات وبعض الحصون والمدن الكبيرة التي انتزعتها العثمانيون من البيزنطيين واتخذوها عواصم لإمارتهم تبعاً: سوغوت، أسكي شهير (المدينة القديمة)، يني (يكي) شهير (المدينة الجديدة)، بورصة، وأدرنة، على التوالي.

بدأت هذه العملية منذ أوائل حكم عثمان غازي. ففي تموز (يوليو) ١٣٠١م، واجهت قوة عثمانية قوةً بيزنطيةً بقيادة قائد قلعة إزميت (نيقوميديا) يوريوس موزالون (George Mouzalou) في معركة قيون حصار أو قيون حصارى (بافيون في المصادر الأوروبية) التي انتهت بهزيمة البيزنطيين وانتصار العثمانيين انتصاراً ساحقاً بفضل سلاح الفرسان (عاشق، ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م، الصفحات ٢٢ - ٢٥)؛ (خليفة، ٢٠٠٩م، صفحة ١٤٠). وبعد ثلاث سنوات (في عام ١٣٠٤م) سيطر العثمانيون على بيلاه جك (Pachymeres، ١٨٣٥، صفحة ٣٣٥). وحتى نهاية حكم عثمان غازي سيطروا على كل من كايك (كاتوكيا، غرب بورصة، عام ١٣٠٦م)، وغيبيكلر (كوبوكليا) القريبة من أولوباد. وسيطر أورخان غازي في مطلع حكمه على بورصة (٦ نيسان / أبريل ١٣٢٦م) بعد حصار طويل، وأولوباد (١٣ أيار / مايو ١٣٢٧م)، وإزنيق (٢ آذار / مارس ١٣٣١م). وبعد عامين وافق الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس الثالث (١٣٢٨-١٣٤١م) على دفع الجزية له^(١٨).

والآن نحلل أثر انضمام أولئك البيزنطيين إلى البدو الأتراك، وذلك بالتركيز على ثلاثة مظاهر من عملية التحول: الاقتصاد المحلي، والحملات العسكرية، والهيكل الحكومي شبه السياسي (القبلي)، وهي المظاهر التي

(18) Ibid., pp. 414, 597.

شهدت تحول الإمارة العثمانية من عادات القبيلة إلى نظام الدولة^(١٩).

١- الاقتصاد المحلي (الرعي): علينا أن نحلل أولاً النتائج التي تركها المظهر الرعي للحياة البدوية العثمانية على أهالي شمال غرب الأناضول، ولاسيما في سوغوت، الذين كانوا يفضّلون الزراعة على الرعي لعوامل جغرافية ومناخية تتعلق بطبيعة التربة التي كانت خصبةً وصالحةً للحراثة أكثر من صلاحيتها للرعي، إلى جانب كون إيراداتها أوفر وأمن من إيرادات الرعي. وقد تمّت هذه العملية بالتدريج، فمع تراكم ثروات البدو من الغنائم ورؤوس الأغنام وسهولة الطرق، ظهرت عادة التنقل وصار لكل مزارع منزلٌ يحتوي على شتى أنواع البضائع. وبمرور الوقت، مال البدو العثمانيون إلى الاستقرار في تلك المنازل واستبدلوا حياة البداوة بحياة الرعي، وكان هذا خطوةً مهمّةً نحو الاستيطان في مناطق مزروعة. ولكن مع ازدياد امتلاك مساحات أوسع وأخصب من الأراضي، انخفض عدد المزارعين الذين أخذوا يبحثون عن أراضٍ في مناطق أخرى، وهو ما فعله عثمان غازي بمنح أتباعه أراضٍ في داخل المدن والقرى وخارجها تمهيداً لاستيطانها بالتزامن مع إقراره حقوق المزارعين البيزنطيين في أراضيهم (Lindner، ١٩٨٣، الصفحات ٣٠-٣١). وثمة الكثير من الأمثلة التي توضّح مراحل هذه العملية. فعند حديثه عن وصول العثمانيين إلى سوغوت والمناطق المجاورة، ذكر عاشق باشا زاده أن البيزنطيين كانوا مستائين من عثمان غازي وقبيلته الذين لم يألفوا زراعة الأراضي ورثها بحيث تكون بينهم لغةً مشتركةً (عاشق، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م،، صفحة ١٤). ويبدو من طبيعة فرسانه في معركة قويون حصار أن جيشه كان لا يزال يحتفظ ببعض سمات البداوة. وعلى الرغم من أنه استعمل سلاح الفرسان البدوي في انتزاع تلك المدينة، إلا أن ذلك لم يمنعه من إنشاء مستوطنة بنفسه في عام ١٣٠٠ هي يني شهير وأسكن بعض قواته فيها لتكون أهم سلّة غذاء في المنطقة، وكان تأسيسها خطوةً حاسمةً في استيطان العثمانيين (Stotz، ١٩٣٩، الصفحات ٨٧-٨٨، ٩١-٩٦).

يستند ما سبق إلى افتراض أن العثمانيين كانوا يتصرفون وفقاً لمصلحتهم الاقتصادية الذاتية، أي أنهم اختاروا الاستقرار بعد تحقيقهم حياةً أفضل وأمن حينما تملّكوا أراضٍ وأصبحوا مزارعين. وما يؤيد ذلك أن طبيعة موطنهم الخصبة دفعتهم إلى ترك تربية المواشي والأغنام والتحول إلى الزراعة التي كانت إنتاجية المحاصيل فيها

(١٩) تُرس هذا الموضوع بالتفصيل في: (الواللي، أيار ٢٠٠٨م، الصفحات ٥٩-٩٣).

أعلى بكثير من إنتاجية المواشي والأغنام، وكان واضحًا أن مواطنهم كان يوفر معيشةً أفضل لعدد أكبر من المزارعين مما يوفره للرعاة. ولهذا السبب بالذات كان قرار الاستيطان العثماني المبكر فيه معقولاً، ويفسر تراجع الأهمية الاقتصادية للبدو لدى الإمارة العثمانية الناشئة (Lindner، ١٩٨٣، الصفحات ٣٠-٣١).

٢- **الحملة العسكرية:** ننتقل الآن إلى المظهر العسكري للبدو ونرى كيف تحول الجيش في زمن عثمان غازي وأورخان غازي من قبيلة رماة إلى قوة مشاة مستقرة. وتتبع الإشارة إلى أن بدو البراري غالبًا ما كانوا يعتمدون على السرعة وخفة الحركة والمباغثة ورماية السهام لتجنب المواجهات المباشرة، وبالتالي فالمحارب البدوي هو فارسٌ ينصب كمائن ويكرّ ويفرّ ويرمي وإبلاً من السهام من مسافة بعيدة لإعاقة خصمه. وقد أثبتت هذه الأساليب فاعليتها في البراري وفي المناطق الجبلية، ولكنها لم تكن كذلك في المناطق الحضرية والحصون والمدن كما في بورصة التي كان لا بدّ من تطبيق أساليب أخرى لاقتحامها، مثل الحصار الذي يتطلب وجود سگان مستقرين. ولأن الاستقرار في مكان واحد لم يكن متاحًا للبدو بسبب تنقلهم المستمر، عمدوا إلى نصب الكمائن للاستيلاء على الحصون عوضًا عن استخدام آلات الحصار، كما حصل في حصن تريكوتشيا (بين نيقية وبورصة) في عام ١٣٠٨م أو بُعيد ذلك (Pachymeres، ١٨٣٥، صفحة ٦٣٨). ولعلّ هذه التجربة راقّت لعثمان غازي وأكدت أهمية وجود قوة مشاة قوية. وبالتالي، بدأ باستخدام أساليب الحصار المتبعة لدى الجيوش المستقرة، وأمر بإنشاء متاريس لحراسة مداخل بورصة (Schreiner، ١٩٦٩، الصفحات ٣٩٠-٣٩٢).

كان دور أورخان غازي حاسمًا في استقرار الجيش، إذ أولى اهتمامًا خاصًا بتعزيز حصونه، ثم كنفّ اهتمامه بتنمية قوة المشاة، ولاسيما بعد معركة أسكي حصار (بيليكانون/ بلاكه نون) ضد البيزنطيين في ١٠-١١ حزيران (يونيو) ١٣٢٩م، التي كان جيشه فيها مكونًا من رماة بدو أساسًا، وانتهت بانتصار العثمانيين، وأسفرت عن التوسع في بناء جيش وتحويل اعتماده من سلاح الفرسان المُكلف إلى المشاة. وتجلّى ذلك بإنشاء فيلق مشاة الـ "يايا" الذي مثّل إدراك القادة العثمانيين أهمية وجود جيش مستقر لتحقيق الانتصارات. وهكذا تحوّل رامي القوس إلى فارس، وهو أحد مفارقات التاريخ العثماني، ليخطو العثمانيون بذلك خطوةً أخرى نحو الابتعاد عن حياة البداوة وانحسار الاهتمام بها (عاشق، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م،، صفحة ١٩)، وهو يدل على أن الدوافع الاقتصادية والعسكرية أدت إلى توطين العثمانيين وتقليص اهتمامهم برفاهية المتبعين من البدو. والآن ننتقل إلى مظهر البداوة الثالث، وهو المظهر شبه السياسي الذي هو "القبيلة".

٣- الهيكل الحكومي شبه السياسي (القبلي)

كان دور عثمان غازي في هذه العملية دور الزعيم المنتخب. وبهذه الصفة، كان مسؤولاً عن تنظيم الهجرات الموسمية وتوجيهها، وساعد قبيلته في مواجهة التحديات الخارجية المتمثلة بأمرأء وحصون بيله جك وإنغل، وكان يقود حملات الصيد والسلب والنهب. وهكذا ازدهرت قبيلته ونمت. وعلى الرغم من ذلك، ظهرت تحديات جديدة بسبب انضمام المزارعين إلى قبيلته. ولأنه لم يكن مزارعاً بل بدوياً ديدنه حرية الحركة التجارية في أسكي شهير والتحول من السلب والنهب إلى الحصار، لم تكن هذه الأنشطة مألوفةً لديه ولا لأتباعه البدو. ولكن السؤال: كيف تمكّن هذا الشخص البسيط من توحيد أتباعه وحلفائه البيزنطيين مع بعض، وما عوامل القوة لديه؟

باختصار، كانت قبيلته هي نواة المجتمع البدوي العثماني، وكانت المشيخة هي مظهرها السياسي والطريقة الوحيدة أمامه لتنظيم أفراد قبيلته. وحتى عندما تحول هؤلاء من الرعي إلى الزراعة، بقيت علاقاتهم به طيبةً، ولذلك التفت حوله جماعاتٌ متعددة الطوائف واللغات التي سُميت "العثمانيين"، وهي التسمية التي سنسلط الضوء عليها.

كانت القبيلة أداةً فاعلةً في توحيد شتى الجماعات التركية الرعوية والبيزنطية المستقرة. وكان الانتماء إليها وإلى العشيرة بسيطاً. فمثلاً، بينما يتكون المخيم من بضعة أفراد من الأقارب، كانت عدة مخيمات تضم أفراداً لا صلة قرابة بينهم، ولكن تربطهم ببقية أفراد المخيم المشاركة والتعاون لا الدم؛ فالمخيم وحدة اقتصادية يعتمد أفرادها على بعضهم البعض. ومثل أهمية روابط الدم بين أفراد القبيلة، كانت أهمية النسب. وقد لاحظ فيتك هذه المسألة عند تفكيكه سلاسل أنساب العشائر العثمانية الملققة التي أتاحت الثغرات والشكوك فيها المجال لاكتشاف نسب مشترك بين أسرهم (فيتك، ٢٠٢٤م، الصفحات ٤٥-٥٩). وبينما كان مبدأ القبيلة قائماً على القرابة، كان واقع الحياة فيها قد تبلور وفقاً للمصالح المشتركة والمنافع المتبادلة والتعاون (فيتك، ٢٠٢٤م، الصفحات ٥٠-٥١). لذا، كانت القبيلة كياناً سياسياً غايةً في الأهمية لا تحدده علاقات القرابة فحسب، بل مجموعة عوامل مختلفة أخرى أيضاً. وبينما كان وجود مخاطر خارجية يشجع بروز زعيم فيها، أسهمت عوامل أخرى في تعزيز الشعور بالمصالح المشتركة الجامعة لأبنائها من خلفيات متنوعة، من ضمنها اعترافهم بأنهم جماعةً مستقلةً يلتزم أفرادها بالتكاتف ضد الغريب ضد أي خطر خارجي، وهو ما أكده محمد فؤاد كوبرولو بقوله: "إن هذه القبائل كانت أنقى

العناصر التي تمثل القومية التركية وأكثرها حيويةً، ولكنها لم تكن تعترف بأي نظام اجتماعي غير نظامها العشائري المغاير لمفهوم النظام في الدولة. وكانت هذه الكتل لا تتصاع لقانون وتتنظر لأهل القرى والمدن باستخفاف، فإن آنتست خللاً في جهاز الإدارة انقلبت إلى عناصر فوضوية مخربة، فهاجمت القرى المكشوفة والمدن الضعيفة الدفاع وقوافل التجار وأعملت السلب والنهب. وكان لحركاتهم هذه دوافع كثيرة، منها طمع جباة الضرائب وسوء استعمالهم السلطة، ومنها جشع رؤساء العشائر ومنافعهم الخاصة، ومنها القحط وهلاك القطعان وغير ذلك من الأزمات الاقتصادية“ (كوپريللي، ١٩٦٧م، صفحة ٨١).

يقودنا ذلك إلى التساؤل مرةً أخرى: كيف تمكّن عثمان غازي من قيادة هذه القبيلة؟ الجواب إن قدرته في ذلك تعزى إلى نجاحه في غارات السلب والنهب والصيد وإدارة الموارد والحكم، وقبل كل شيء نجاحه في تأسيس وحدة سياسية وتنظيمية متماسكة. ونظرًا لأن القبيلة عند تشكلها تتجاوز الأسرة واللغة والدين، فإنها كانت وعاءً نجح في استيعاب البيزنطيين المستقرين والبدو العثمانيين معًا. ولأن الفضل في تطورها يعود إليه شخصيًا، سُميت ”آل عثمان“. وعلى الرغم من أن معظم البيزنطيين المستقرين والبدو العثمانيين معًا، إلا أن بعضهم اعتنق الإسلام يحدوهم الأمل في تحقيق مكاسب، حتّى أن بعضهم تنبأ بمناصب عليا في البلاط العثماني. وكذلك، يعود نجاح عثمان غازي في زعامة القبيلة إلى قدرته على حماية المصالح الأساسية المشتركة لأفراد قبيلته، وهي تأمين الوصول إلى المراعي ومناطق الصيد. ولذلك تنامت سلطته لنجاحه في أن يكون حلقة وصل بين مصالح قبيلته والتحديات الخارجية، وأدى ذلك بالنتيجة إلى اجتذاب المزيد إلى قبيلته. ولكن نجاحه هذا أدّى في المقابل إلى ظهور تحديات وفرص جديدة في شكل مجندين من غير البدو وغير الأتراك، مثل كوسه ميخال المذكور آنفًا.

ومع ذلك، لم تستطع تلك القبيلة تلبية احتياجات مجتمع أعقد له أهداف ومؤسسات متباينة ومتشابهة. ولكن مع تطور المؤسسات العثمانية في نبي شهر، ثمّ في بورصة، تعقدت مسؤولياتها إزاء متطلبات الإدارة الحضريّة والاقتصاد الزراعي المستقر. وشيئًا فشيئًا تعقدت مصالحها وزادت الفجوة بين أفرادها وبين حياة البداوة الآخذة بالاندثار. وإزاء ذلك، كان لا بدّ من وجود حكومة تراعي هذا التطور الجديد. وهنا أفسح المظهر السياسي للبداوة المجال أمام ظهور حياة الاستقرار. وعندما بدأ العثمانيون بنبذ حياة البداوة، انتفتحت حاجتهم لأساليبه. وعند الخلافات، لم تعدّ مصالح البدو تمثل أولويةً لهم وتراجع اهتمامهم بها إلى حدّ الأدنى، وأصبحوا أكثر اهتمامًا بالمؤسسات المستقرة وخطط إدارة الدولة التي كان لفقهاء المسلمين والدرائش دورٌ أساس في بلورتها

٢٨٨-٢٧٧، pp. ١٩٤١، Uzunçarşılı)، وكانوا في الوقت نفسه يحملون أيديولوجيةً جاهزةً للمرحلة التالية من تطور حكم العثمانيين؛ فمثلما وظّفوا مفهوم "الجهاد في سبيل الله" لوصف غزوات العرب في صدر الإسلام، وظّفوا مفهوم "الغزو" لوصف الغارات البدوية العثمانية الأولى. ولذلك، فالكتابة المنقوشة على جامع "شهادت" في بورصة ما هي إلا انعكاسٌ لحالة التطور الإداري العثماني وليس مفتاحًا لأصل العثمانيين.

وثمة مظهرٌ آخر على أن التطورات الإدارية التي شهدتها العثمانيون في أوج حكم أورخان غازي بدأت توتّي أكلها. وقد أشار عاشق باشا زاده في حديثه عن غزو إمارة قره سي (١٣٣٤-١٣٣٦) إلى إنشاء دفتر تحرير، أي توثيق الأرض رسمياً (عاشق، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م،، صفحة ٤٢)؛ (بيليسينو، ١٩٩٣م،، صفحة ٢٦)، وكان هذا أهم انجاز للغزاة وأبرز وأهم المظاهر الإدارية لحكم أورخان غازي الذي ثمة إجماع على أنه يمثّل التحول النهائي للمجتمع العثماني إلى نظام حكم سياسي ومجتمع مستقر.

الخاتمة

استنادًا إلى ما طرح في البحث، يمكن القول إن النزعة القبلية . البدوية كانت أهم سمات النشاط العثماني المبكر، ذلك أنها منظومة اجتماعية شبه سياسية جامعة لا تعتمد على وحدة الأصل، بل على المصالح السياسية المشتركة. وبالتالي، فإن الغزوات العثمانية المبكرة ضد البيزنطيين لم تكن بدافع ديني، بل بسبب حاجة القبيلة البدوية إلى الذوبان في المجتمع المستقر والاندماج فيه. وقد تمكن العثمانيون الأوائل من محاربة جيرانهم المسلمين والاندماج مع البيزنطيين لأن تنظيمهم كان قبلياً في الأساس، ما سمح لهم باستيعاب الأفراد والجماعات المتنوعة. وثمة إشاراتٌ متعددة . من بينها انتشار البدع والخرافات ومحاربة جيرانهم المسلمين وغيرها . تشير إلى أن الحديث عن شدة إيمانهم وحماسهم للإسلام والجهاد كان سابقاً لأوانه في تلك المرحلة المبكرة بالذات. غير أن هذه "الشمولية القبلية" أخذت بالتفكك في عهد أورخان غازي، حينما بدأ العثمانيون يتحولون من قبيلة من البدو الرُحّل إلى مجتمع زراعي مستقر. وقد نقل الفقهاء الذين استقطبهم إلى إمارته الناشئة فكرة الغزو معهم، فالتقطها وأمر بنقشها في جامع "شهادت" في بورصة.

يقودنا ذلك إلى الاستنتاج أن مفهوم "الغزو/ الجهاد" لم يكن عقيدة العثمانيين الأساسية في نشوء إمارتهم وتوسُّعها في مرحلتها الجينية، إذ تبيَّن أن عوامل متعددة أدت إلى استبعاد محورية الدين لسعي عثمان غازي إلى السلطة؛ إذ أسس قبيلته من أتباعه البدو. وكانت فلسفة إمارته تقوم على تكرار الغارات لإرهاق موارد الأعداء المحدودة. ولتوسيع القبيلة، رَحَّب هو وابنه بانضمام المزيد من البدو والمزارعين الآخرين. وشيئاً فشيئاً، تنامت القبيلة وابتعدت عن حياة البداوة واقتربت من حياة المدنية والاستقرار. وفرضت عملية التحول هذه إجراء تغييرات في طبيعتها وجوهر هويتها. ونتيجةً لذلك، نأى خلفاء عثمان غازي وأورخان غازي بأنفسهم تمامًا عن السلطة القبلية والتزاماتها، ولم يعودوا زعماء قبائل، بل أصبحوا حكامًا على رعايا مستقرين من أهل المدن والقرى والبدو معًا، واتخذوا لقب "سلطان". ولكن لأن هذا التحول في طبيعة الحاكم من زعيم منتخب إلى سلطان لم يرق للبدو، حاول العثمانيون إخضاعهم بضرائب وإجراءات أخرى على غرار ما كان يطبَّق على الفلاحين، وهو ما أثار نفورهم وعمق الفجوة بينهم وبين سادتهم الذين بدا وكأنهم تتكروا لأصلهم.

وفي سبيل التوصل إلى هذه النتيجة، كان هدفنا الأول التحقُّق من صحَّة فرضية الغزو/ الجهاد بوصفه الدافع الذي أوصل العثمانيين إلى السلطة، وكان لذلك أهميةً بالغةً، لأن أي دور للقبيلة البدوية في التاريخ العثماني المبكر سيتلاشى فيما لو اقتصر تفسيرنا على وجود دوافع إسلامية جياشة. وقد توصلنا إلى أن تلك الفرضية لم تعد مدعومةً بالأدلة الكافية لصمودها، وهو ما قاد بالنتيجة إلى النظر للموضوع من زاوية أخرى بتسليط الضوء على تاريخ شمال غرب الأناضول في أواخر القرن الثالث عشر، مع التركيز على نشاط البدو وتأثيرهم في البيزنطيين المستقرين الذين كان هناك عاملان رئيسان حددا مصيرهم وسهَّلَا اندماجهم بالقبيلة العثمانية المتنامية: نعمتهم المتزايدة على حكامهم، وانجذابهم لقيادة عثمان غازي. ثمَّ انتقلنا من تحليل تاريخ البدو الأتراك إلى تحليل ثلاثي الأبعاد (اقتصادي وعسكري وسياسي) لأثر البداوة في المشروع العثماني المبكر بيِّن تراجع مكانة البداوة في أواخر عهد عثمان غازي ومطلع عهد ابنه أورخان غازي الذي تطلبت الضرورات العسكرية في عهده زيادة عدد المشاة وانحسار سلاح الفرسان. وأدى تعقد الحكم والإدارة إلى تحول زعيم القبيلة إلى سلطان يشرف على المزارع والأسواق والمنشآت الدينية والمدن ويدير الحكم في آن واحد.

باختصار، كان مشروع استقرار العثمانيين هو موضوع هذا البحث؛ فمع استقرارهم، تبنَّوا القيم المرتبطة بالاستقرار؛ تلك القيم التي تأصلت في مجتمعهم لدرجة ما عاد بالإمكان معها تصوُّر أن يعتنق زعيمهم قيمًا

أخرى. وترتب على ذلك أن يثبت المؤرخون العثمانيون اللاحقون أن عثمان غازي كان يعتنق ذات القيم والآراء الاجتماعية والدينية التي اعتنقها أحفاده لاحقاً، وعبروا بها عن رؤيتهم لسلطة لا مجال للقيم البدوية فيها.

المراجع

*On the Origins and Connotation of the Term "Tekfur", " .(٢٠٠١). Alexios G. C. Savvides
Byzantion, vol. 71, no. 2 = pp. 451-461*

*de Palamas chez les Turcs: dossier et La captivité" , .(١٩٧٩). Anne Philippidis-Braat
in: Travaux et Mémoires du Centre de Recherche d'Histoire et "commentaire
.Civilisation de Byzance, vol. 7*

.Geographical Review, vol. 29 , "The Bursa Region of Turkey" .(١٩٣٩). Carl Louis Stotz

*Pre-Ottoman Turkey: A General Survey of the Material and Spiritual .(١٩٦٨). Claude Cahen
Culture and History (1071- 1330), J. Jones-William (tr.), Taplinger Publishing
., Company, New York*

.Belleten, vol. 12 , "Devrinde Anadolu'da Kayıtlar Osmanlı" .(١٩٤٨). Faruk Demirtaş

*Nomads of South Persia, The Basseri Tribe of the Khamseh .(١٩٦١). Fredrik Barth
., Confederacy, Oslo University Press, Oslo- G. Allen and Unwin, London*

*Georgii Pachymeris de Michaele et Andronico Palaeologis libri .(١٨٣٥). George Pachymeres
.tredecim, I. Bekker (ed.), Weber, Bonn, vol. 1*

*in the First Centuries of the 'Jihad' The Holy War" .(١٩٨٠-١٩٧٩). Gyula Kaldy-Nagy
.Harvard Ukrainian Studies, vols. 3-4. part 1 , "Ottoman Empire*

Kuruluş İkinci Sikkesi ve Osmanlı'nın Kayıp 'Osman Gâzî' .(٢٠١٨) .Hakan Yılmaz
e Armağan (ed.), Ozan 'Aramak, Gönül Tekin ı'Hayât ı-Âb , "Tartışmalarına Etkisi
.,İstanbul ,Üçer, Yeditepe Yayınları Orçun-Kolbaş

The Foundation of the Ottoman Empire, The Century Co., New .(١٩١٦) .Herbert A. Gibbons
.,York

Mehmed Paşa and History of the Nişancı .(٢٠٢٣) .Himmet Taşkömür and Hüseyin Yılmaz
in: Rachel Goshgarian et al (eds.), Crafting History: Essays On the , "Ottoman House
Ottoman World and Beyond in Honor of Cemal Kafadar, Academic Studies Press
.,Brookline, Boston

Recherches sur les actes des regnes des sultans , .(١٩٦٧) .Irène Beldiceanu-Steinherr
.,Osman, Orkhan et Murad I. Munich

in: Elizabeth Zachariadou , "l'origine sociale des premiers ottomans" .(١٩٩٣) .Irène Mélikoff
.,(ed.), The Ottoman Emirate (1300-1389), Crete University Press, Rethymnon

.Belleten, vol. 5 , "Gazi Orhan Bey Vakfiyesi" .(١٩٤١) .Uzunçarşılı İsmail Hakkı

.,Acta Orientalia, vol. vi , "Wer War Osman" .(١٩٢٨) .J. H. Kramers

ed.), Les registes des actes du Patriarcat de Constantinople, vol.) .(١٩٧٧) .Jean Darrouzès
.,études byzantines, Paris'Institut français d , ١٣٧٦ à I, Fasc 5: Les registes de 1310

i Cihan-Nüma, Faek Reşit Unat and Mehmed A. Köymen .(١٩٤٩) .Kitab Mehmed Neşri
.,Ankara ,(eds.), Türk Tarih Kurumu Basımevi

.,Historia, Ioannes A. van Dieten (ed.), Walter de Gruyter, Berlin .(١٩٧٥) .Nicetas Choniates

Üçüncü de Bastırdığı' de Yenişehir' 1300-1301/700. (Aralık, 2019). nin'Osman Gâzî Özel Dergisi, cilt 4, sy. Söğüt Tarih Araştırmaları Vakanüvis – Uluslararası ,”Sikkesi .Sayısı

,”(1390–Zur Geschichte Philadelphias im 14. Jahrhundert (1293“ .(1969). Peter Schreiner in: *Orientalia Christiana Periodica, Pontificium Institutum Orientalium studiorum, Rom, .vol. 35, no. 2*

İslamlaşma Süreci ve Türklerin İsa Sofi Türbesi: Tezyinatı“ ,.vd , .(2019). Refik Arıkan .İncelemeleri Dergisi, vol. 2, no. 41 Türk Kültürü ,”Açısından Değerlendirilmesi

Nomads and the Ottomans in the Medieval Anatolia, Research .(1983). Rudi Paul Lindner .,Institute for Inner Asian Studies, Indiana University, Bloomington

Türk Dünyası ,”in Adi Sorunu’ni Kuran Osman Bey’Osmanli Devleti“ .(2021). Yusuf Gedikli .vol. 129, no. 255, Kasım– Aralık ,Araştırmaları

أحمد بن يوسف القرمانی. (1992م). أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، دراسة. (تحقيق: أحمد حطييط وفهمي سعد، المحرر) بيروت: عالم الكتب (3 أجزاء).

أنیس عبد الخالق محمود. (كانون الثاني (يناير) 2019م). نقاش في نظرية بول وتك عن قيام الدولة العثمانية. أسطور للدراسات التاريخية، العدد 9، ص 63-87.

إیرین بیلدیسینو. (1993م). البدايات: عثمان وأورخان“، في: مانتران، روبير. تاريخ الدولة العثمانية. (ترجمة: بشير السباعي، المحرر) القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، (ص 17-48) جزآن.

باشا زاده عاشق. (1332هـ / 1914م). تواريخ آل عثمان: عاشق باشا زاده تاريخي. استانبول: مطبعة عامرة.

پول فیتک. (2024م). نشوء الإمبراطورية العثمانية. (ترجمة: أنيس عبد الخالق محمود، المحرر) لندن . بيروت: شركة الوراق للنشر المحدودة.

جام جم آيين؛ حسن بن محمود بياتي. (١٣٣٣ / ١٩١٤ م). سلسلة نامہ سلاطين عثمانية قدر. إستانبول: مطبعه سي، در سعادت.

حاجي خليفة. (٢٠٠٩م). *فذلكة التواريخ: تاريخ ملوك آل عثمان*. (تحقيق: سيد محمد السيد، المحرر) أنقرة: مؤسسة العالي آتاتورك للثقافة واللغات والتاريخ.

حسن بن عبدالعزيز. (١٩٢٢م). *تواريخ آل عثمان*. (ترجمة وتحقيق: فردريخ كيزه، المحرر) بره سلاو: دار الفنوني مدرسلرندن، بره سلاو (مخطوط محفوظ في جامعة وولاية ساكسون أنهالت الألمانية ULB، ومنشور على: <https://shorturl.at/Gyvve>).

زكريا سليمان بيومي. (شباط (فبراير) ١٩٨٧م). *إسلام الأتراك العثمانيين وأثره على تأسيس دولتهم وجهودهم في نشر الإسلام في شرق أوروبا من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر*. مصر: مجلة كلية التربية، المنصورة ص ٢٧٣ - ٣٠٢.

طالب محيبس حسن الوائلي. (أيار ٢٠٠٨م). *العثمانيون من تقاليد القبيلة إلى نظام الدولة: دراسة تحليلية في خصوصيات التحول والبناء المؤسسي*. مجلة واسط للعلوم الإنسانية، العدد ٦ ص ٥٩-٩٣.

عبد الخالق محمود. (شباط (فبراير) ٢٠٢٢م). *نشوء تدوين التاريخ العثماني وتطوره حتى أواخر القرن الخامس عشر*. أسطور للدراسات التاريخية، مج ٨، العدد ١٥ ص ٣٨-٧١.

غسان بن علي الرّمّال. (١٤١٧-١٤١٨هـ / ١٩٩٦-١٩٩٧م). *جامع الدول لمنجم باشي: قسم سلاطين آل عثمان إلى سنة ١٠١٣هـ، دراسة وتحقيق*. مكة المكرمة: أطروحة دكتوراه (غير منشورة) جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية.

محمد فؤاد كوپريلي. (١٩٦٧م). *قيام الدولة العثمانية*. (ترجمة: أحمد السعيد سليمان، المحرر) القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.